

١٢- الوصف والتشبيه

إن الجانب الأكبر من المقطعات الشعرية الأندلسية التي حفظتها لنا كتب الأدب إنما هي مجرد مرتجلات صدرت عن أصحابها وَحْيَ لحظتها، وهي قطع وصفية، وفي كثير من الأحيان تشبيهات مفردة. وقد كان العرب من أكثر خلق الله ابتكاراً للتشبيهات، وتضم المعلقات طائفة من أبدع نماذجها، كقول امرئ القيس في وصف مطر عارم وما أصاب الوحوش منه:

كَأَنَّ السُّبَاعَ فِيهِ غَرَقَى عَشِيَّةً بِأَرْجَائِهِ الْقُصْوَى أَنَابِيشُ حُنُصُلُ^(١)

وقد ضمن ابن سعيد مقدمة كتابه المسمى «عنوان المرقصات والمطربات» (طبعة جمعية المعارف - القاهرة ١٢٨٦هـ) نظرية عن الخيال وتصنيفاً لضروبه^(٢). وقد سبق أن أشرت إلى رسائل عربية يمكننا اعتبارها مختصرات دراسية في

(١) المعلقات العشر، شرح الشنيطي. طبع مطبعة الاستقامة - ١٣٥٣هـ، ص ٧٤.

(٢) العبارة الإسبانية يفهم أن المراد منها الخيال أو التصوير الشعري La imagen. أما ما يذكره على بن سعيد في مقدمة «عنوان المرقصات والمطربات» فتقسيم للشعر كله إلى طبقات خمس:

١- المُرْقَص: ما كان مخترعاً أو مولداً يكاد يلحق بطبقة الاختراع كقول ابن حمديس الصقلي:

بَاكَرٌ إِلَى اللَّذَاتِ وَارْكَبُ لَهَا سَوَابِقُ اللَّهْرِ ذَوَاتِ الْمَرَاحِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَرشَفَ شَمْسُ الضُّحَى رَيْقُ الْغَوَادِي مِنْ ثُغُورِ الْأَقَاخِ

٢- المَطْرِب: ما نقص فيه الغوص عن درجة الاختراع إلا أن فيه مسحة من الابتداع كقول زهير من المتقدمين:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الذِّى أَنْتَ سَأِلْتَهُ

٣- المقبول: ما كان عليه طلاوة مما لا يكون فيه غوص على تشبيه وتمثيل وما أشبه ذلك، كقول ابن شرف البرجى:

لَا تَسْأَلِ النَّاسَ وَالْأَيَّامَ عَنْ خَبِيرِي مِمَّا يِثَانُكَ الْأَخْبَارَ تَطْفِيلاً =

التشبيهات، ومن أشهر هذه كتاب لطيف لعز الدين أبي العز طاهر بن حسن المعروف بابن حبيب الحلبي (المتوفى ٨٠٨هـ)؛ فهو موجز سهل المأخذ، وفي نيتي ترجمته.

ونظراً لما تمتاز به قوالب الشعر العربي من أبيات طوال وإيقاع تتخلله الوقفات، وجد الشاعر العربي نفسه مضطراً إلى تأمل ما حوله وتصويره في فتور وبطء وتراخ، ومن أمثلة ذلك ما نرى من عاطفة وثيدة متراحية تجعل الوزير الكبير المصحفي يصف في ثمانية أبيات كاملة عملاً بسيطاً هو اقتطاف سفرجلة وتعريتها من زغبها الذي كان يحيط بها ونقلها إلى وسط مجلسه:

وَمُصْفَرَّةٌ تَخْنَالُ فِي ثَوْبِ نَرْجِسٍ	وَتَعْبِقُ عَنْ مِسْكٍ زَكِيِّ التَّنْفَسِ
لَهَا رِيحٌ مَحْبُوبٌ وَقِسْوَةٌ قَلْبُهُ	وَلَوْنٌ مَحَبٌّ حَلَّةٌ السُّقْمِ مُكْتَسِي
فَصُفِّرْنَهَا مِنْ صُفْرَتِي مُسْتَعَارَةً	وَأَنْفَاسُهَا فِي الطَّيِّبِ أَنْفَاسُ مُؤْنِسِي
فَلَمَّا اسْتَمْتَمَتْ فِي الْقَضِيبِ شَبَابَهَا	وَحَاكَتْ لَهَا الْأَنْوَاءُ أَبْرَادَ سُنْدُسِ
مَدَدْتُ يَدِي بِاللُّطْفِ أَبْغَى اقْتِطَافَهَا	لَأَجْعَلَهَا رِيحَانَتِي وَسَطَ مَجْلِسِي
وَكَانَ لَهَا ثَوْبٌ مِنَ الزَّغَبِ أَغْبَرُ	يَرَفُّ عَلَى جِسْمٍ مِنَ التَّبَرِّ أَمْلَسِ
فَلَمَّا تَعَرَّتْ فِي يَدِي مِنْ لِبَاسِهَا	وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا فِي غِلَالَةِ نَرْجِسِ
ذَكَرْتُ بِهَا مَنْ لَا أَبُوحُ بِذِكْرِهِ	فَأَذْبَلَهَا فِي الْكَفِّ حَرُّ تَنْفَسِي ^(١)

= ٤- المسموع: ما عليه أكثر الشعراء مما به القافية والوزن دون أن يحجه الطبع، ويستقله السمع، كقول طرفة بن العبد:

وَقَفْنَا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطْيَهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَلَّدِ

٥- المتروك: ما كان كلاً على السمع والطبع، كقول المتنبي:

فَقَلَقْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَقَ الْحَشَا فَلَا قَلَّ عَيْسٍ كُلُّهُنَّ فَلَا قَلَّ

انظر: علي بن سعيد: «عنوان المرقصات والمطربات» (طبعة جمعية المعارف، القاهرة ١٢٨٦هـ) ص ٥٤، ٥٥. (١) ابن الأبار: «الحلة»، ص ١٤٤.

ومن نماذجه كذلك وصف أبي الحسن على بن حصن لفرخ حمام فى بطن
واتشاد يذكّرانا بصبر نقاشى المنمنمات:

وَمَا هَاجَنِي إِلَّا ابْنُ وِرْقَاءَ هَائِفٌ	عَلَى فَنَنْ بَيْنَ الْجَزِيرَةِ وَالنَّهْرِ
مَفْسُوقٌ طَوَّقِي لَا زَوْرَدِي كُلِّكِلْ	مَوْشَى الطَّلَى أَخْوَى الْقَوَادِمِ وَالظَّهْرِ
أَدَارَ عَلَى الْبَاقُوتِ أَجْفَانٌ لَوْلُؤٍ	وَصَاعٌ مِنَ الْعَقِيَانِ طَوْقاً عَلَى الثَّغْرِ
حَدِيدٌ شَبَا الْمَنْقَارَ دَاجٌ كَأَنَّهُ	شَبَا قَلَمٍ مِنْ فُضَّةٍ مَدٌّ فِي حَبْرِ
نَوَسَدَ مِنْ فَرْعِ الْأَرَاكِ أَرِيكَةً	وَمَالَ عَلَى طَى الْجَنَاحِ مَعَ النَّحْرِ
وَلَمَّا رَأَى دَمْعِي مُرَاقاً أَرَابَهُ	بُكَائِي فَاسْتَوَلَى عَلَى الْغَصَنِ النَّضْرِ
وَحَثَّ جَنَاحِيهِ وَصَفَّقَ طَائِرُهُ	وَطَارَ بَقْلِي حَيْثُ طَارَ، وَلَا أُدْرِى (١)

بيد أن ذلك التباطؤ المتراخى فى التعبير لا يحول - قبل أن يختم على مهل -
بين الشاعر وبين أن يبعث فى تراكيبه التشبيهية حيوية وسرعة غير عاديتين، فيستقل
بذهنه انتقالات سريعة يلم فيها بالمتباعدات، فنجده يشبه شيئاً صغيراً بشيء كبير
(الإبرة الدقيقة بالشهاب، أو الكستان بخوذة بغير ريشة)، أو يفعل العكس فيشبه
شيئاً كبيراً بشيء صغير (كتشبيه مجاذيف القارب بأهداب العين أو أوطاب الساقية
بالجفون). وتعتبر تقاليد البلاغة العربية سبق الشاعر إلى معنى لم يطرعه أحد من
متقدمى الشعراء مقياساً للبراعة والتقدم، وتنظر إلى ما يجيء به الشاعر فى هذا
الميدان كمادة أولى، ومن ثم لم يغادروا فى شعرهم شيئاً لم يشبهوه بشيء، ففى
عالم النبات مثلاً لا يقف الشعراء عند دائرة الزهور العليا، بل يضعون النيلوفر
والخرشوف جنباً إلى جنب، ولا يرون بأساً من أن يقرن الباذنجان بالنرجس.
وهكذا كانت كل الأشياء عندهم سواء، يستعملونها فى تكوين صور نباتية ذات
جمال تذكّرنا بالزخارف المتشابكة التى تنقش فى المرمر أو الرخام أو الجص على
السواء؛ كل شيء يصلح أن يكون مادة للفن فى أيديهم. هذا، ولا وجود
لإحساسنا بالطبيعة فى هذه الروضيات غير الواقعية.

(١) ابن سعيد: «الرايات» ص ١١. ولم ترد ترجمة الأبيات فى نص المؤلف، وإنما أشار إلى رقمها بين
مختاراته وهو ١.

وتكثر فيما بين أيدينا من حكايات أهل الأندلس نماذجُ تَبَارَى الشعراء فى أن يصفوا بالشعر أشياء معينة تُقترح فى المجلس كما تُلقى الألغاز والأحاجى ، فكانوا يطلبون إلى الشاعر مثلاً أن يقول فى وصف بندقية أو قرنفلة أو محبرة أو مرآة .
ولسنا نرى طائلاً من وراء ذكر المواضيع الرئيسية التى تناولها هذا الأدب الوصفى الأندلسى من التشبيهات المعروفة أو المبتذلة (كشبيه النهر إذا صفا بالسيف ، وبالزرد إذا هبَّ النسيم عليه فتموجتْ صفحته) إلى التشبيهات الذائعة أو البارعة .

ومن خلال هذه البلاغة المركبة المترفة - التى تتألف من أنغام صاحبة راقصة^(١) ، وأقمار وثُرَيَّات ، وحشد حافل من مواد جامدة متألقة كاللؤلؤ والزمرد والعقيق - من خلال ذلك كله تتراءى لنا حياة الأندلس الإسلامى . وإنه لعالم مثالى يثير الإعجاب ، يجمع بين دفتيه الأصداء الخافتة المترامية من الصحراء النائية ، فيذكر الآبار والجِمال ، إلى جانب الواقع الراهن الذى كان يصافح العين ، فنجد شعراء بلنسية يحدثوننا عن السواقي والبرتقال ، والبيد والغزلان فى آنٍ واحد .



(١) عبارة المؤلف هنا Zarabanda de soles والكلمة الأولى معناها «السُرْبند» وهى رقصة شعبية سريعة صاحبة معروفة فى أوربا ، واسمها مشتق من لفظ «سربند» الفارسى و Soles جمع Sol وهى النجمة الخامسة فى السلم الموسيقى الإفرنجى بحسب التسمية اللاتينية ، وقد رأيت أن أترجمها إلى العربية على هذا النحو .